بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على
سيدنا محمد وآله وصحبه

الدروس الحسنية التي تلقى بحضرة أمير المومنين
صاحب الجلالة والمهابة الملك محمد السادس نصره الله وأيده
بمناسبة شهر رمضان الأبرك

يلقيه:

الأستاذ أحمد الريسوني
أستاذ بكلية الآداب بالرباط

موضوعه:

مقاصد البعثة المحمدية

انطلاقا من قوله عز وجل:

" ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التورية والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ".

سورة الأعراف: الآيات 156-157

الجمعة 15 رمضان 1420هـ
الموافق 24 دجنبر 1999م

مقاصد البعثة المحمدية

لفضيلة الأستاذ: أحمد الريسوني
أستاذ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس

انطلاقا من قول الله سبحانه: **{ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويوتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يومنون الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون}**

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

حضرة أمير المؤمنين مولانا محمد السادس، حفظكم الله تعالى بلطفه، وأحاطكم بعنايته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى هذا المجلس الكريم.

وأسأل الله العلي القدير ذا الجلال والإكرام أن يمدكم بعونه وتوفيقه، فيما تحملتموه من أمانة عظمى، ومسؤولية كبرى، وأن يجعل عهدكم عهد يمن وبركات، وعهد عزة ورفعة وإصلاح لهذا البلد العزيز، وأن يشد أزركم بشقيقكم الأمير مولاي رشيد حفظه الله، ووفقكم معه لما يحبه ويرضاه.

وإننا يا مولاي، إذ نواصل حلقات هذا المجلس العلمي، ونتفيأ ظلاله، لا بد وأن نتذكر الغائب الحاضر مؤسس هذا المجلس وراعيه، وموجهه ورائده جلالة والدكم المعظم الحسن الثاني، وخير ما نسديه إليه كلما ذكرناه، هو أن نتوجه إلى الرحمان الرحيم أن يتغمده بواسع رحمته ومغفرته، وأن يسكنه فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

أما بعد، فإن موضوع هذا الدرس هو: مقاصد البعثة المحمدية من خلال الآيتين المذكورتين من سورة الأعراف، وإن معرفة مقاصد البعثة النبوية عموما مقاصد الأنبياء، معرفتها تؤسس لمعرفة الدين كله، لمعرفة توجهاته وأولوياته، وأغراضه ومراميه، فمن خلال هذه المقاصد، مقاصد البعثة، نفهم كل ما انبنى عليها، وما تفرع عنها.

وإن مقاصد البعثة النبوية ومقاصد بعثة الرسل جميعا، هي الأساس الذي تنبني عليه شرائعهم. فلمعرفة مقاصد الشريعة وأحكامها لابد من معرفة المقاصد التي تأسست عليها، ولابد لكل اجتهاد في الشريعة، وباسم الشريعة أن يتأسس على مقاصد هذه البعثة، كما حددها المرسل سبحانه وتعالى.

وإن المقاصد التي بعث بها رسولنا *صلى الله عليه وسلم* منها ما نص عليه القرآن مشتركة مع بعثة غيره من الرسل والأنبياء، ومنها مقاصد وردت عند ذكر خاتم الأنبياء بصفة خاصة. ومن المقاصد المشتركة بين الرسل معرفة الله وعبادته وخلع ما سواه. قال الله عز وجل: {**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**}.

فإذن عبادة الله واجتناب عبادة كل ما سواه هي غاية مقصد مشترك بعث له كل الرسل وإلى كل الأمم: {**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**}. ومن المقاصد المشتركة التي ذكرها القرآن الكريم، وهي مشتركة وموحدة، وبعث لأجلها الرسل جميعا، ما جاء في قوله تعالى في سورة الحديد: {**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**}، فالقسط هو غرض آخر مشترك بين الرسل والرسالات جميعا. والقسط يا مولاي ليس خاصا بالقضاة والولاة والإدارات والشركات، وإنما هو قسط يمارسه المسلم، ويمارسه المكلف في كل جزئية من جزئيات حياته، وفي كل مجال من مجالات حياته.

ففي الإنسان مع نفسه قسط، وفي الإنساط مع أهله وفي بيته قسط، وفي معاملاته قسط. هذا القسط العام الشامل هو الذي أرسل الله رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس به، وليحققوه وليتحلوا به، وليجعلوه منهج حياتهم.

وهذان المقصدان العامان المشتركان بين الأنبياء الواردان في الآيتين السابقتين هما ما ذكره ربعي بن عامر المسلم قائد جيش المسلمين حين التقى قائد جيش الفرس رستم، فسأله لماذا جئتم؟ وماذا تريدون؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل

الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. فهو يفهم ويفهم المسلمون أنهم بعثوا بما بعث به *رسول الله صلى الله عليه وسلم*.

هذه بعض المقاصد المشتركة التي ذكرت في القرآن الكريم عامة لجميع الأنبياء. وهناك آيات خاصة، تحدثت عن البعثة المحمدية فبينت مقاصدها وأغراضها ومراميها، من ذلك ما نجده في قوله تعالى في سورة الجمعة: {**هو الذي بعث في الأميين رسولا، منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**}.

فحددت هذه الآية ثلاثة مقاصد:

أولا: يتلو عليهم آياته.

ثانيا: يزكيهم.

ثالثا: يعلمهم الكتاب والحكمة، فهي وظائف ثلاث، أو لعلها مستويات ثلاثة لوظيفة واحدة، هي وظيفة الرسالة.

- **أولها**: مستوى التبليغ، وهو مذكور، وهو المشار إليه أو المنصوص عليه في قوله: {**يتلو عليهم آياته**}. التلاوة والتبليغ تبليغ الناس ما أرسل إلى رسول الله، وما حمله، وما كلف بتبليغه.
- **المستوى الثاني هو**: التزكية، حيث يقوم بتربية الناس، والأخذ بهم نحو التحلي والتحقق، والتخلق بنا جاء به الوحي من معتقدات وقيم وآداب، مع تعهدهم والتدرج بهم في هذا الطريق.
- **والمستوى الثالث**: {**ويعلمهم الكتاب والحكمة**}، ويظهر أنه مستوى أعلى وأوسع من سابقه، فهو يقوم على عنصر العلم والتعليم، تعليم الكتاب والحكمة، والكتاب واضح معروف. وأما الحكمة فقيل في تفسيرها هي السنة، أخذا من قوله تعالى في آية أخرى خطابا لأمهات المؤمنين: {**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**}. وهذا تفسير الإمام الشافعي للحكمة، وفسرها غيره بما هو أعم وأوسع، بحيث يشمل السنة وغيرها من فقه الدين وعلوم الشريعة.

فقد سئل الإمام مالك عن معنى الحكمة، فقال: المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له، وعلى كل الأحوال والأقوال فإن المقاصد النبوية المذكورة في هذه الآية تبقى أساسا مقاصد تربوية علمية تعليمية.

ولذلك أعقبها الله تعالى بقوله: **{وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}**، أي أنها تخرج الناس مما يعرض لهم من ضلال فكري أو سلوكي.

وقبل أن أنتقل من هذه الآية وما تضمنته من مقاصد للبعثة المحمدية، فإن هناك ما يستوقفنا ويدعونا إلى الانتباه والتأمل، وهو أن مضمونها قد تكرر بتمامه وألفاظه ثلاث مرات أخرى في القرآن الكريم، مع اختلافات طفيفة في التركيب والترتيب. ففي سورة البقرة نقرأ: **{كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}**.

وفي سورة آل عمران: **{لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}**.

وفي دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لهذه الأمة من سورة البقرة أيضا: **{ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم}**.

وواضح مما ذكر أن هذه المعاني التي تتكرر في القرآن الكريم أربع مرات، واضح أنها ذات شأن كبير ووزن ثقيل في مقاصد البعثة المحمدية.

والتزكية هي الانتقال بالإنسان من الانحطاط والانحدار والتخلف إلى درجات الرقي والسمو الفكري والقلبي والروحي والخلقي، فهذه هي رسالة الإسلام ورسالة نبي الإسلام، تزكية شاملة، وإيذان ببداية عهد جديد للبشرية، وهو ما يتجلى في الجانب الثاني من هذه المقاصد، وهو العلم والتعليم. رسالة الإسلام كما علمت الناس وزكتهم وتلت عليهم، فإنها شقت لهم الطريق كيف يتعلمون بأنفسهم، وكيف يرتقون بأنفسهم، وذلك هو تعليم الحكمة وتعليم الكتاب.

وقد لخصت الأحاديث النبوية أيضا هذا المعنى وأكدت هذا المغزى، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". إنما بعثت بصيغة الحصر، لأتمم مكارم الأخلاق. وفي رواية الإمام مالك في موطإه: "بعثت لأتمم حسن الأخلاق".

هذا في جانب التزكية عموما، وفي جانب الوظيفة العلمية التعليمية.

أخرج الدرامي في سننه، وابن ماجه في سننه أن *رسول الله صلى الله عليه وسلم*، مر بمجلسين في مسجده، فقال: **"كلاهما على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه. أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه أو العلم، ويعلمون الجاهل فهم أفضل. وإنما بعثت معلما"**. ثم جلس معهم. جلس مع مجلس العلم والتعليم.

وبعد هذه النظرة السريعة على بعض الآيات المتعلقة بمقاصد البعثة، بعثة الرسل عموما، وبعثة خاتم الأنبياء خصوصا، أنتقل إلى الآيتين الكريمتين المعتمدتين أساسا ومنطلقا لهذا الدرس، وهما الآيتان السادسة والخمسون، والسابعة والخمسون بعد المائة من سورة الأعراف. وقد جاءتا جوابا على دعاء سيدنا موسى عليه السلام حين قال: {**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، إنا هدنا إليك**}. فجاءه الجواب والبيان من الله تعالى: {**قال عذابي أصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون، ويوتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يومنون، الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**}.

وقد تضمنت هاتان الآيتان قضيتين محوريتين أساسيتين: القضية الأولى هي رحمة الله الواسعة، ومن يستحقها وكيف يستحقها. فرحمة الله التي وسعت كل شيء، قد تكرر ذكرها في موضعين آخرين من الذكر الحكيم. ففي سورة الأنعام يقول الله تعالى: {**فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين**}، وفي سورة غافر على لسان الملائكة: {**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**}.

هذه الرحمة التي وسعت وتسع كل شيء، منها ما أعطي ابتداء، ويشمل هذه الدنيا بكل من فيها وكل ما فيها، فهي تشمل المومن والكافر، والبر والفاجر، وتشمل الكون كله والكائنات كلها، فبرحمة الله يعيشون، وبرحمة الله يتعايشون، وبرحمة الله يرزقون، وبرحمة الله يستمتعون، وبرحمة الله يحيون، وبرحمة الله يموتون، إلى غير ذلك من مظاهر الرحمة واللطف في هذا الكون وفي هذه الحياة، غير أن تمام الرحمة ودوامها، وشمولها الدنيا والآخرة، لا يتأتى إلا بما بينته الآيتان من شروط ومقتضيات، تتلخص وتتركز في اتباع الرسول النبي الأمي، وما جاء به من هدى ونور: {**فسأكتبها للذين يتقون ويوتون الزكاة، والذي هم بآياتنا يومنون، الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل**}.

فهذه الرحمة الواسعة التامة الدائمة تمر حتما عبر طريق تقوى الله، والإنفاق في سبيل الله، والإيمان والتمسك بآيات الله.

وبما أن الموضوع جاء في سياق مخاطبة موسى عليه الصلاة والسلام، وقومه بني إسرائيل، فقد استدعى الأمر تذكيرهم بأن طريق الله وطريق رحمة الله ستصبح منوطة باتباع نبي الرحمة، الرسول النبي الأمي المبشر به وبصفاته، عندهم في التوراة والإنجيل.

فهذا الرسول الذي ختم الله به الرسالة والنبوة وجعل رسالته خاتمة الرسالات، قد أصبح بشخصه وبرسالته وشريعته مفتاح الرحمة والسبيل الموصلة إليها، وإلى تمامها ودوامها. فهو أولا ما بعث إلا بالرحمة ولأجل الرحمة. قال تعالى: {**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**}، وهو القائل عن نفسه: "وإنما بعثت رحمة"، وقال: "إنما أنا رحمة مهداة"، وقال عنه ربه الذي أدبه وبعثه: ، {**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمومنين رءوف رحيم**}وصفه بما وصف به نفسه: {**إن الله بالناس لرءوف رحيم**}، وهذا الرسول يوصف بأنه: {**بالمومنين رءوف رحيم**}.

وخاطبه بقوله: {**فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر**}. فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة بقلبه وقالبه، بقوله وفعله، بشريعته وبعثته. قال العلامة ابن عاشور عند قوله تعالى: {**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**}، قال: وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:

- **الأول**: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة.
- **والثاني**: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

ونقل القاضي عياض في الشفا عن أبي بكر ابن طاهر القيسي الإشبيلي قوله: زين الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة. أي وجوده رحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق، وهو القائل *صلى الله عليه وسلم* في أكثر المواقف حاجة إلى الشدة، حينما كان يؤذيه قومه، ويتنكرون له كان يقول: **"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"**.

هذه أعظم مظاهر الرحمة أن يكون الإنسان مع أعدائه وفي مواقف الشدة والمواجهة لا يدعو عليهم، ولا ينتقم منهم، وإنما يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وعندما فتح مكة، وعندما فتح الله عليه مكة،

وجاءه أهلها خائفين، طائعين مضطربين، قال لهم وهم يتوقعون كل شر وبأس؛ قال لهم: **(لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين)**.

وفي الحديث قال *صلى الله عليه وسلم*: **"إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من وجد أمه على بكائه"**. والأمثلة من رحمته في جميع المواطن والمواقف لا تعد ولا تحصى، ولهذا لم يكن بد لمن أراد تمام الرحمة في الدنيا ودوام الرحمة في الآخرة، من أن يتبع هذا الرسول النبي، وأن يستمسك بهذه الرحمة المهداة: {**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون**}.

القضية الثانية: في هاتين الآيتين وهي المقاصد التشريعية للبعثة المحمدية، وهي المذكورة في قوله تعالى: {**يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**}.

فهذه المبادئ الخمسة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، وإبطال الآصار والأغلال، هي مبادئ ومقاصد للبعثة في حد ذاتها. ولكنها في الوقت نفسه تكون الأسس والأصول التي قامت عليها الشريعة الإسلامية، ويقوم عليها التشريع الإسلامي، ويجب أن يرجع إليها وينبني عليها كل اجتهاد إسلامي.

وفيما يلي وقفات سريعة مع هذه المقاصد أو هذه الأصول الخمسة:

- **أولا**: الأمر بالمعروف، والمعروف اسم جامع لكل خير، ولكل مصلحة من مصالح الدنيا وخيراتها، ومن مصالح الآخرة ولوازمها. فالمعروف يشمل أولا كل ما أمر الله به، كل ما أمر الشرع به أو حث عليه، أو رغب فيه أو أرشد إليه، والمعروف يشمل كل ما يستحسنه العلماء والعقلاء من خلال علمهم وتجربتهم وخبرتهم. قال القاضي عبد الحق بن عطية الأندلسي: المعروف ما عرف بالشرع. وكل معروف من جهة المروءة، فهو معروف بالشرع. وقال ابن عاشور: فالمعروف شامل لكل ما تقبله العقول والفطر السليمة.

والمعروف بهذا المعنى الواسع الشامل تشهد له وتؤيده وتقوية نصوص شرعية كثيرة، منها: {**خذ العفو وامر بالعرف**}، {**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**}، {**وافعلوا الخير لعلكم**

تفلحون}، **{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره}**، **{وأحسن كما أحسن الله إليك}**. إلى غير ذلك من هذه النصوص المشرقة التي لم تبق شيئا من أعمال الخير والإصلاح، ومن مبادرات البر والإحسان إلا شملته وانطوت عليه.

ولذلك ذهب عدد من العلماء والدارسين قديما وحديثا إلى أن كل ما عرفته البشرية من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ومن أعمال الخير والبر، كل ذلك راجع إلى الدين وإلى دعوات الأنبياء ورسالاتهم، ولو ذهبنا اليوم نبحث عن الأصول الثقافية، والجذور التاريخية لما يسمى بالعمل الإنساني والمنظمات الإنسانية لوجدناها انبنت أو نبعت من الدين وتراثه، ونبتت في تربته وفي أحضانه، وبهديه وإيحائه.

- **ثانيا**: إزالة المنكر، والمنكر ضد المعروف، ودون أن أطيل فهذا الأصل الملازم للأصل السابق هو متممه، والوجه الآخر له. وقد تلازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النصوص القرآنية والحديثية، حتى أصبحا في أذهاننا يمثلان شيئا واحدا، وقضية واحدة. فلا يذكر الأمر بالمعروف إلا ومعه جزءه الثاني: النهي عن المنكر.

والحقيقة أن الشريعة كلها عند التأمل والتحقيق هي إما معروف تأمر به وتقيمه، وإما منكر تنهى عنه وتزيله، ولذلك دأب العلماء وعلماء المقاصد خاصة على اختصار الشريعة في كلمتين جامعتين هما: جلب المصالح ودرء المفاسد. أو كما عبر الجويني إمام الحرمين: الشريعة نفع ودفع.

ولم تقف الشريعة الإسلامية عند حد اعتبار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأصلين الأكبرين من أصولها، والمقصدين الأولين لبعثة رسولها، بل جعلتهما رسالة ووظيفة للأمة الإسلامية كلها. والنصوص في هذا كثيرة وفيرة مشهورة.

وها نحن اليوم نسمع ونشهد الحديث المتزايد عن المجتمع المدني وهيآت المجتمع المدني، وتفعيل دور المجتمع المدني، فمرحبا بهذه الصحوة التي لن تكون سوى إحياء وتفعيل واستعادة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي وظيفة المجتمع الإسلامي.

- **ثالثا**: تحليل الطيبات.
- **رابعا**: تحريم الخبائث.

وسأتحدث عن هذين الأصلين مجتمعين، ربحا للوقت أولا، ولصعوبة الفصل بينهما ثانيا.

ولعل أول ما يحتاج إلى توضيح هو التمييز بين الأصلين السابقين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذين الأصلين: تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث. وملخص هذا التفريق يا مولاي هو: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شاملان لكل الأفعال ولكل التصرفات والمجالات، والتعبير بالطيبات والخبائث عادة ما يتوجه إلى المآكل والمشارب والمكتسبات من الأموال.

وقد وصف الله تعالى أهل العفة والحصانة من النساء والرجال بالطيبين والطيبات، ووصف أهل الزنا بالخبيثات والخبيثين في قوله: {**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** }، وهذا لا يخرج وصف الأشياء بالطيبات والخبائث عما ذكرته من خصوصية وغلبة في الاستعمال.

وأما تعريف الطيبات والخبائث، والتفريق بين الوصفين، فأبدأه بتعريف الخبائث، لأنها محدودة ومنضبطة، وأما الطيبات فلا حد لها والحمد لله. فإذا عرفنا الخبائث كان ما سواها كله من الطيبات، والخبث الذي توصف به المواد المأكولة والمشروبة أو الأموال المكتسبة، فتسمى لأجله خبائث؛ نوعان: خبث ذاتي، وخبث حكمي.

فالخبث الذاتي هو ما يكون صفة ذاتية حسية في الشيء كالمواد النجسة والقذرة والمتعفنة، وكذلك الأشياء الضارة ضررا بينا غالبا في الحال أو في المآل. ويدخل في هذا جميع الأطعمة والأشربة، والمواد الفاسدة أو المفسدة للجسم أو العقل أو المزاج، كالميتة ولحم الخنزير والخمر والمخدرات والتدخين.

وأما الخبث الحكمي فهو ما لم يكن خبيثا ولا ضارا في ذاته، ولكنه خبيث من حيث الطريقة المحرمة التي اكتسب بها، كالمال المكتسب بالرشوة أو السرقة أو الربا أو الغش. فسواء كان نقودا أو مأكولات، أو تحول إلى ملابس أو عقارات، فهو خبيث في حكم الشرع، ولو كان في ذاته طيبا وجيدا ورفيعا، وليس من الممكن في حكم الشرع، تبييض المكاسب السوداء أو تطييب الخبائث، لأن الخبث هنا حكمي لا ذاتي، ولا سبيل إلى الخروج من ذلك إلا بالتوبة والتخلص من المكسب المحرم، ورد الحقوق إلى أهلها.

فإذا عرفت الخبائث فكل ما ليس منها وما لم يدخل فيها فهو من الطيبات. وهذه القاعدة: **{يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث}**، هي مظهر آخر من مظاهر رحمة الله. ومن مظاهر الرحمة في شريعته. فهي تطلق يد الإنسان في كل ما ينفعه ولا يضره، مما في هذا الكون من خيرات ومنافع، ونعم لا تعد ولا تحصى. وهي أيضا وفي هذا من الرحمة أيضا ما فيه، تحمي الإنسان من أن يوقعه جهله أو جهالته أو جشعه في شيء مما يضره أو يهلكه وهو لا يدري أو لا يقدر. كما أنها تحمي الناس بعضهم من بعض، فحقوق الغير إذا أخذت بغير رضاهم هي خبائث لمن أخذها.

ومن هذه الآية استخرج العلماء القاعدة التشريعية: "الأصل في المنافع الحل، والأصل في المضار الحرمة".

- **خامسا**: إزالة الآصار والأغلال: **{ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم}**. والإصر معناه في الأصل الثقل الذي يعوق صاحبه عن الحركة. والأغلال جمع: غل. وهو ما يكبل به الأسير والمحبوس، والآية تشير إلى بعض الأحكام المشددة الثقيلة التي عرفتها الشرائع والأمم السابقة، وخاصة بني إسرائيل، وهم المذكورون في سياق الآية. ومن الأحكام الثقيلة التي فرضت على بني إسرائيل، تحريم العمل يوم السبت، وتحريم الغنائم، ووجوب القصاص في العمد والخطإ معا، وأن لا تقبل توبة أحدهم إلا بأن يقتل نفسه، وإذا أصابت النجاسة الثوب لزم قطع موضعها.

وبغض النظر عن هذه الأمثلة أو غيرها، فإن الأهم هو أن نعرف الأسباب والحكم التي استدعت بعض التشديدات عليهم. وهي أسباب مصرح بها أو مشار إليها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: **{فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموالهم الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما }**.

وهذا يذكرنا بالقولة الشهيرة للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور. أي من انحرافات ومشاكل. فبنوا إسرائيل لكثرة ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، ولشدة طمعهم وجشعهم وانغماسهم في الربا، وفي أكل الأموال بالباطل، وأيضا لشدة قسوة قلوبهم، كما قال الله تعالى: **{ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة}**.

لهذه الأسباب وأمثالها كان الله تعالى يشدد عليهم عقوبة وردعا. ومن أسباب التشديد أيضا عليهم، ما نجده في قصة البقرة، وهي معروفة حيث ركبوا كعادتهم مركب الالتواء والتعقيد والمماطلة، تهربا من تنفيذ ما أمروا به، فلم يزدد الأمر عليهم إلا تشديدا وضيقا: {**فذبحوها وما كادوا يفعلون**}.

ومن أسباب التشديد عليهم أيضا لجوؤهم إلى التحايل على أحكام الله لنقضها ومخالفتها مع المحافظة الشكلية عليها كما في قصتهم مع صيد السمك في يوم السبت، وهي مفصلة في القرآن.

وقبل أن تأتي الرسالة الخاتمة، نجد أن رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، قد جاءت ببعض التخفيفات على بني إسرائيل، لعلهم يتعظون ويرجعون. فقد جاء على لسان عيسى ابن مريم وهو يخاطبهم برسالته: {**ومصدقا لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون**}.

فلما جاءت خاتمة الرسالات، وهي موجهة للعالمين، ومستمرة إلى يوم الدين، أبطلت كل تلك التشديدات الاستثنائية، ونهجت منهج اليسر والمرونة والرحمة من غير تفريط ولا انحلال، فألغت الأغلال والآصار، وأبطلت الرهبانية والغلو، وأقامت شريعتها على الاعتدال والتوازن والتخفيف: {**يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر**} .

وفي كتاب الإيمان من صحيح البخاري: باب الدين يسر، وقول *النبي صلى الله عليه وسلم*: **"أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة"**. وفيه أي في هذا الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن *النبي صلى الله عليه وسلم* قال: **"إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"**.

وفي البخاري أيضا من كتاب الجهاد والسير أن *النبي صلى الله عليه وسلم* لما بعث معاذا بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن قال لهما: *"يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا"* .

وفي الصحيح أيضا عن عائشة رضي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير *رسول الله صلى الله عليه وسلم* بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، كان أبعد الناس منه، وما انتقم *رسول الله صلى الله عليه وسلم* لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها".

وواضح ما في هذه الأحاديث الشريفة، ما كان عليه *رسول الله صلى الله عليه وسلم* من تمسك باليسر والتيسير، ومن حرص على السماحة والتسامح، ولكن من الواضح أيضا في هذا الحديث الأخير أن ما فيه إثم وتحريم، وما فيه انتهاك لحرمة الله ولحدوده، لا يمكن انتهاكه وإهداره باسم التسامح والتيسير.

وإذا كان الإسلام قد جاء يضع ويلغي ما عرفته الأمم السابقة في دينها وتدينها وحياتها من آصار وأغلال، فإنه أحرى أن يكون مانعا ومتنافيا مع ما قد يحدث في المسلمين من ذلك، ولذلك شدد الإسلام النكير والتحذير من البدع والمحدثات في الدين والتدين، وللأسف فقد تراكم في عقول المسلمين وتدينهم وحياتهم الشيء الكثير من الآصار والأغلال التي لا يمكن تجديد الدين وإطلاق حيويته وفاعليته إلا بنقضها وتخفيف الناس منها.

مولاي أمير المؤمنين، هذا ما فتح الله به، وما يسمح به الوقت في هذا المقام. فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأرنا اللهم الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.